العنوان:	الذاكرة و التاريخ من خلال كتاب المؤرخ جاك لوغوف
المصدر:	منبر الحوار
الناشر:	دار الكوثر
المؤلف الرئيسي:	عثمان، عفيف حيدر
المجلد/العدد:	ع 36
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	1998
الشهر:	خريف
الصفحات:	94 - 105
رقم MD:	524538
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
قواعد المعلومات:	HumanIndex
مواضيع:	المؤرخون الأوربيون ، لوغوف، جاك ، كتاب الذاكرة و التاريخ ، نقد الكتب
رابط:	https://search.mandumah.com/Record/524538

الذاكرة والتاريخ
من خلال كتاب المؤرخ جاك لوغوف(*)

متابعة: عفيف عثمان

I ـ الذاكرة: المفهوم ومقاربته:

إن تناول الذاكرة يتحدد بالصورة التي تبرزها بها العلوم الإنسانية، وتحديداً التاريخ والأنتربولوجيا. وهذه الأخيرة تنشغل بالذاكرة الجمعية أكثر من انشغالها بالذاكرة الفردية، فالذاكرة هي خاصية حفظ بعض المعلومات، وهي تحيل إلى جملة من الوظائف النفسية يستطيع الإنسان بفضلها استرجاع واحياء انطباعات أو معلومات انقضت ومن ثم يتمثلها كماض. لذا، اهتم علم النفس وعلم الأعصاب والبيولوجيا بدراسة الذاكرة ومشاكلها وأهمها: فقدان الذاكرة، وكيفية تقويتها بتقنيات محددة. وهو ما يساعدنا على فهم طبيعة الذاكرة الإنسانية.

يعتبر بيار جانيه (P.Janet) في «تطور الذاكرة ومفهوم الزمن» (1922) أن تقنية التذكر الأساسية هي في «مسلك السرد» (La conduite du rècit) الذي يتميز بادىء ذي بدء بوظيفته الاجتماعية، لأنه اتصال مع الآخرين من خلال معلومة، بغياب الحدث أو الموضوع الذي يمثل الدافع، حيث تتدخل هنا اللغة، التي هي نفسها منتجٌ من منتوجات المجتمع. وهذا ما جعل هنري اتلان (H. Atlan) يقارب في أبحاثه بين «اللغة والذاكرة»: «فالاستخدام للغة المنطوقة ومن ثم المكتوبة، هو بالواقع توسيع رائع لإمكانات تخزين

(*) Jacques Le Goff, **Histoire et mémoire,** Paris, éd. Gallimard, 1988, 409 p.

ذاكرتنا، التي تستطيع بفضل هذا الأمر الخروج من الحدود الفيزيقية لجسمنا، فتضع نفسها (الذاكرة) أما عند الآخرين أو في المكتبات. وهذا يعني أنه قبل أن تُنطَق أو تُكتَب، كان يوجد نوع من اللغة، كشكل من تخزين المعلومة في ذاكرتنا».

مشكلات الذاكرة، وتحديداً الفقدان الموجودة عند الأفراد والتي تؤدي إلى الاضطراب في الشخصية تنسحب أيضاً على الذاكرة الجمعية. فغياب أو فقدان الذاكرة الجمعية عند الشعوب والأمم ـ طوعياً أم قسرياً ـ يمكن أن يقود إلى اضطرابات خطيرة وحادة في الهوية الجمعية.

وقد لاحظ جاك غودي (J. Goody) أنه «في جميع المجتمعات، يحوز الأفراد على كمية كبيرة من المعلومات في ارثهم الجيني، وفي الذاكرة البعيدة المدى، وظرفياً في الذاكرة الحية».

اندريه لورا ـ غوران (André Leroi - Gourhan) في «الذاكرة والتواتر» (La mémoire et les Rythmes)، الجزء الثاني من «الحركة والكلام» (Le geste et la parole)، يأخذ الذاكرة بالمعنى الواسع، ويميز ثلاثة انماط منها: الذاكرة الخاصة (المحددة)، الذاكرة الأثنية (ethnique) والذاكرة الاصطناعية. أما العصور الحديثة فقد نقلت مجال الذاكرة إلى الآلة وإلى الحياة.

استخدمت الذاكرة الجمعية في صراع القوى الاجتماعية من أجل السلطة. فأن تكون سيد الذاكرة والنسيان هو أحد الاهتمامات الأساسية للطبقات، والجماعات والأفراد الذين سيطروا ويسيطرون على المجتمعات التاريخية: فالنسيان وصمت التاريخ، وقائع كاشفة لأواليات التلاعب بالذاكرة الجمعية. فدراسة الذاكرة الاجتماعية هي إحدى المقاربات الرئيسة لمشاكل الزمن والتاريخ، والتي نسبة إليها، تكون الذاكرة في تراجع حيناً وفي حالة فيض في حين آخر.

في الدراسة التاريخية للذاكرة التاريخية، يجب ايلاء أهمية خاصة للفروقات بين المجتمعات القائمة على ذاكرة شفوية والمجتمعات التي تملك ذاكرة مكتوبة، ويجب الانتباه أيضاً إلى مراحل الانتقال من الشفاهية إلى الكتابة، وهو ما يُطلق عليه غودي تعبير «تدجين الفكر الوحشي». فالإقتراح هو أن ندرس:

1 ـ الذاكرة الأثنية في المجتمعات التي لا تملك كتابة والمسماة «وحشية» (Sauvages).

2 ـ ازدهار الذاكرة من الشفاهة إلى الكتابة، من فترة ما قبل التاريخ إلى العصور القديمة.

3 ـ الذاكرة الوسيطة الموجودة في حالة توازن بين الشفاهي والكتابة.

4 ـ تطور الذاكرة المكتوبة من القرن التاسع عشر إلى أيامنا هذه.

5 ـ الفيض الحالي للذاكرة.

II ـ الذاكرة الأثنية

وهذه تشير إلى كل الذاكرة الجمعية عند كل المجتمعات التي لا تملك كتابة. والجدير بالذكر أن النشاط الخاص بالذاكرة خارج الكتابة، هو نشاط ثابت عند كل المجتمعات، فجاك غودي يعتبر «أن تراكم العناصر في الذاكرة هو جزء من الحياة اليومية». فثقافة الناس الذين لا يملكون كتابة مختلفة ولكنها ليست مُغايرة. والحقل الأساسي الذي تتجلى فيه الذاكرة الجمعية للشعوب دون كتابة، هو الذي يعطي بُعداً تأسيسياً، ذا مظهر تاريخي لوجود الاثنيات أو العائلات، هو أساطير البدء (les mythes d'origine) يميز نادل (Nadel) عند النوب (Nupe) في نيجيريا بين نمطين من التاريخ. من جهة، التاريخ الذي يسميه «موضوعي» وهو سلسلة من الوقائع التي يميزها الباحثون والتي تتوافق مع بعض المعايير «الموضوعية، العالمية التي تتناول العلاقات بينها (أي الوقائع) وتلاحقها». والتاريخ الآخر الذي يطلق عليه «ايديولوجي» والذي «يصف ويُنظم هذه الوقائع في توافق مع بعض التراثات الموجودة».

هـذا التـاريـخ الجمعـي يميـل إلى خلـط التـاريـخ والأسطـورة. ويـدور «التـاريـخ الإيديولوجي» حول «البدايات الأولى للمملكة» (مملكة النوب). في هذه المجتمعات التي لا تملك كتابة، نعثر على اختصاصيين في الذاكرة: رجال ذاكرة، يقول عنهم جورج بالاندييه (J. Balandier) إنهم «ذاكرة المجتمع» وينسب إليهم لوروا ـ غوران دوراً هاماً يقوم على «حفظ تماسك المجتمع».

III ـ ازدهار الذاكرة: من الشفاهة إلى الكتابة

في المجتمعات التي لا تملك كتابة تتمحور الذاكرة الجمعية حول مسائل الهوية

الجمعية للجماعة التي تتأسس على الأساطير، وتحديداً أساطير الأصل أو البدء؛ وظهور الكتابة يرتبط بتحول عميق في الذاكرة الجمعية. فالكتابة سمحت لهذه الأخيرة بتطور مزدوج، وازدهار شكلي منها: الأول هو الاحتفاء بنصب تذكاري لحدث يجب تذكره، عندها تأخذ الذاكرة شكل التدوين عبر النقوش. وهو ما شجع وجود علم مساعد للتاريخ هو النقوش: فالحجر والرخام لعبا دور الحامل لهذا القدر الزائد من الذاكرة.

الشكل الآخر من الذاكرة المرتبط بالكتابة هو الوثيقة المكتوبة على حامل مُعدّ خصيصاً لهذا الغرض (بعد محاولات الكتابة على العظام، والقماش، والجلد، وسعف النخيل... الخ)، يربط لوروا ـ غوران تطوير الذاكرة بظهور وانتشار الكتابة الوثيقة الصلة بالتطور الاجتماعي والتمدين.

في عملية الانتقال من الشفاهة إلى الكتابة، أصاب الذاكرة الجمعية وخصوصاً الذاكرة الاصطناعية تحولاً. فجاك غودي يعتقد أن ظهور أواليات مساعدة للذاكرة تسمح بالتذكر حرفياً، يرتبط بشكل كبير بالكتابة. ويعتقد أيضاً أن وجود الكتابة يقتضي وجود تحولات في البنية النفسية للإنسان، وأن الأمر يتجاوز وجود «أهلية تقنية» فحسب لصالح موقف فكري جديد».

ولكي نحيط بعمق بعملية الانتقال إلى الذاكرة المكتوبة، نعطي مثالاً من اليونان القديمة، من خلال مؤسسة ومن خلال نص: المؤسسة هي «منيمون» (mnémon) وهو «ما يسمح بملاحظة كيف توصلت الذاكرة إلى تسنم وظيفة اجتماعية في القانون».

فمنيمون هو شخصية تحفظ ذكرى الماضي بانتظار قرار من القضاء. هذا الشخص يمكّن لدور «الذاكرة» عنده أن يكون محدوداً بعمليات ظرفية، أو أن يكون وظيفة دائمة. أن ظهور هذا النوع من موظفي الذاكرة يُذكر بظواهر سبق ورودها: الصلة بالاسطورة، والتمدين. يظهر «المنيمون» في الأساطير كخادم ومرافق لبطل مهمته تنحصر في تذكيره دون كلل بوصية الهية يؤدي نسيانها إلى الموت المحتم. وقد استخدمت شخصيات المنيمون هذه لاحقاً في المدن كسلطات مكلفة أن تحفظ في ذاكرتها ما هو مفيد على الصعيد الديني والقانوني. ومع تطور الكتابة تحوَّل أشخاص «الذاكرة الحية» هذه إلى موثقين.

حولت اليونان في العصور القديمة الذاكرة إلى آلهة (Mnémosuné): إنها أم لتسعة

ربات للفنون (Muses) ولدتهم خلال تسعة أيام قضتها مع «زوس» (Zeus). إنها تذكر الناس بذكرى الأبطال وأفعالهم. لذا، تلعب الذاكرة دوراً أولياً في مذاهب الأورفية والفيتاغورية، فهي القطب المضاد للنسيان، وتحمل معنى التذكر الشهير عند أفلاطون للعالم العلوي. لكن وضع الذاكرة خارج الزمن أدى إلى فصلها جذرياً عن التاريخ. فتأليه الذاكرة حال، كما يقول جان بيار فرنان (J.p.Vernant) دون «أي جهد لاستكشاف الماضي». فبرأيه يمكن أن تقود الذاكرة إلى التاريخ أو تحول دونه. فهي عندما توضع في خدمة العالم الأخروي، تتغذى أيضاً من كره عميق للتاريخ. فالفلسفة اليونانية من خلال أبرز مفكريها لم تتوصل إلى مصالحة الذاكرة والتاريخ. فالذاكرة عند افلاطون وأرسطو تنتمي إلى النفس، ولا تظهر قط بجانبها العقلي. وقد عمل اليونانيون على تطوير تقنيات مساعدة للذاكرة، يلعب فيها سيمونيد (Simonide) دوراً محورياً، فهذه «الذاكرة الاصطناعية» تقوم على مبدأين: تذكر الصُور (des images) الضرورية للذاكرة، والاستناد إلى تنظيم (organisation) وإلى نظام (ordre) أساسي لذاكرة جيدة. هذا، وأضحت الذاكرة ركناً أساسياً من أركان الخطابة التي سادت الثقافة القديمة. الخطابة كفن من فنون الكلام يرتبط وثيقاً بالكتابة. وقد تابعت الذاكرة الجمعية ازدهارها من خلال التطور الاجتماعي والسياسي للعالم القديم.

شدد بول فاين (p.veyne) على ما قام به الأباطرة اليونان من مصادرة للذاكرة الجمعية من خلال النُصب العامة والنقوش، في هذيان محموم للذاكرة النقشية. لكن مجلس الشيوخ الروماني عرف كيف يحمي بدوره ذكر هؤلاء الأباطرة من السجلات ومن النُصب، فمن تسلق السلطة بواسطة الذاكرة، كان الرد عليه بتدمير الذاكرة.

IV ـ الذاكرة الوسيطة في الغرب

السمة البارزة للذاكرة الجمعية التي شكلتها الطبقات الحاكمة في العصر الوسيط إنها خضعت لتحولات عميقة. والأساسي منها تأتى من نشر المسيحية كدين وأيديولوجيا مسيطرة، ومن الاحتكار شبه الكلي من جانب الكنيسة للنشاط الفكري. فأُضفي الطابع المسيحي على الذاكرة الجمعية وعلى تقنياتها، وتم تقسيمها بين ذاكرة لاهوتية تدور حول نفسها: ذكرى الأموات وخصوصاً القديسين، واسند لها دور في التعليم المستند إلى

الشفاهي والكتابي في آن معاً، وبين ذاكرة علمانية ضعيفة التواريخ والأحداث.

أدخلت المسيحية بُعداً جديداً للعلاقة بين الذاكرة والدين، وبين الله والإنسان، حتى وُسِمت المسيحية كما اليهودية بكونها «أديان الذكرى» (Religions du Souvenir)، وذلك لأن الكتاب المقدس من جهة، والتراث التاريخي من جهة أخرى، يُشددان في نقاط أساسية فيهما على ضرورة الذكرى كمسار ديني أساسي. تستغرق الذاكرة المسيحية، كما اليونانية في عالم الغيب والرؤية فتنفي التجربة الزمنية والتاريخ، وهذا هو أحد مسالك الذاكرة المسيحية. والمسيحي مدعو يومياً إلى العيش في ذاكرة كلام المسيح المنقول من خلال سلسلة كلام القديسين. فالتعليم المسيحي هو ذاكرة، والطقس الميسيحي هو احياء لذكرى: من الميلاد إلى الفصح إلى الصعود، وذكرى الشهداء والقديسين والمعجزات. ولعبت الذاكرة دوراً متعاظماً في العالم الاجتماعي والثقافي والمدرسي. وفي الأشكال الأولى للتاريخ. وتميز العصر الوسيط بتمجيده للكبار في السن، إذ كان يرى فيهم رجال ـ ذاكرة مفيدين وأصحاب خطوة. وفي القرن الثالث عشر، كرس البير الكبير وتوماس الأكويني حيزاً هاماً للذاكرة في كتاباتهما ووضعوا لها قواعد محددة وتقنياتُ مساعدة.

V ـ التطور في الذاكرة المكتوبة والمصورة من النهضة إلى أيامنا هذه

ساهمت الطباعة بشكل متدرج في تحقيق ثورة في الذاكرة الغربية. وفي الصين أيضاً، حيث كانت الطباعة قد اكتشفت منذ القرن التاسع، والتأثير لم يكن واسعاً، لكن آثاره على الذاكرة ـ أقله لدى الفئات المتعلمة ـ كان هاماً. فطباعة الكتب العلمية والتقنية سرعت ووسعت عملية حفظ المعرفة.

في الغرب بدا الوضع مختلفاً، فقد بيّن لوروا ـ غوران الطابع الثوري الذي اضفته الطباعة على الذاكرة «فحتى ظهور الطباعة(. . .) كان الفصل يتم بصعوبة بين النقل الشفوي والنقل الكتابي، فمقدار ما يُعرف منذ العصور القديمة قد تم تثبيته في مخطوطات لكي يحفظ غيباً. فيما بعد (. . .) مع الطباعة أضحى القارىء أمام ذاكرة جمعية ضخمة لم يعد بإمكانه حصر مادتها كاملة، وغالباً ما انكب على استكشاف كتابات جديدة. وبتنا نشهد على استخراج (extèriorisation) متدرج للذاكرة الفردية». لكن آثار الطباعة لم تتحقق بالكامل إلا في القرن الثامن عشر حين حوّل التقدم في العلوم والفلسفة مضمون

وأواليات الذاكرة الجمعية-«فالقرن الثامن عشر الأوروبي سجل نهاية العالم القديم بالطباعة كما بالتقنيات (. . .) فالذاكرة الاجتماعية باتت مطوية في بطون الكتب خلال عدة عقود: كل العصور القديمة تاريخ الشعوب الكبيرة. الجغرافيا، اتنوغرافيا العالم الذي أصبح كروياً بشكل نهائي، الفلسفة، الحقوق، العلوم، الفنون، التقنيات. فمنذ القرن الثامن عشر نجد كل الصيغ الممكن استخدامها حتى يُقدم للقارىء ذاكرة قد تم تشكيلها سابقاً». وخلال هذه الفترة الفاصلة بين نهاية العصر الوسيط وبداية الطباعة، استطاع فرانسيس ياتس (F.yates) أن يُحدد زمن الاحتضار الطويل لفن الذاكرة، الذي أصبح هامشياً، رغم أن كتاباً صغيراً مثل «كيف تُحسِّن ذاكرتك» لم يتوقف يوماً نشره حتى أيامنا هذه. ويعرض ياتس للصراع المديد الذي خاضه هذا الفن مع العلم الحديث. وكان من ثمرات ذلك، أنه منذ القرن السابع عشر وحتى نهاية القرن الثامن عشر انصرفت الذاكرة عن الاهتمام بالأموات وبذكراهم. لكن عشية الثورة الفرنسية، حدثت عودة إلى ذاكرة الأموات وكما كان الحال في كل اوروبا. وعاد العصر الكبير للمقابر مع نُصُب من نوع جديد ونقوش مستحدثة وطقوس زيارة. أضحى القبر المنفصل عن الكنيسة مجدداً مركزاً للذكرى. وهنا يطرح سؤال حول مساهمة الثورة الفرنسية في هذه العودة؟

تصف منى اوزف (Mona Ozouf) هذا الاستخدام للعيد الثوري في خدمة الذاكرة: «الاحتفال بالذكرى» (Commémorey) هو جزء من البرنامج الثوري، حتى أن دستور 1791 أعلن الأعياد الوطنية مناسبة «لكي تُحفظ ذكرى الثورة الفرنسية». لكن، لاحقاً سيظهر واضحاً التلاعب بالذاكرة. فبعد 9 ترميدور، أي بعد المجازر والإرهاب، ستتخاصم الرقابة مع الذاكرة وتقرر ثلاث مناسبات فقط صالحة للإحتفاء بها، وهي إجمالاً خالية من الدماء. وقد سهل نزع الصفة الدينية عن الأعياد وعن التقويم في عدة بلدان، وعن الاحتفاء بعديد من المناسبات. الفرنسي غامبيتا (Gambetta) كتب في 15 تموز من العام 1972 «إن أمة حرة. بحاجة إلى أعياد وطنية».

في أميركا، عشية حرب الإنفصال قررت ولايات الشمال يوماً تذكارياً. وإذا كان الثوريون يرغبون في عيد تذكاري للثورة، فإن إدارة المناسبات الإحتفالية هي من اختصاص المحافظين والقوميين الذين ينظرون إلى الذاكرة بوصفها هدفاً وأداة للحكم. وسيعرف الاحتفاء بالماضي ذروته في المانيا النازية وايطاليا الفاشية. والاحتفاء بات يجري

بواسطة حوامل جديدة: نقود، ميداليات، طوابع بريدية. وبدءاً من منتصف القرن التاسع عشر تقريباً، ستشهد موجة جديدة من النقوش (نصب، لافتات طرق، لوحات، تذكارية على منازل الأموات المشهورين) تغمرُ الأمم الأوروبية كلها. إنه حقل كبير تختلط فيه السياسة والحساسية والفولكلور، وسيعطي ازدهار السياحة دفعاً لا مثيل له لتجارة «الذكريات».

في هذه الأثناء، تسارعت الحركة العلمية التي تُغذي الذاكرة الجمعية للأمم. ففي فرنسا، أنشأت الثورة (7 أيلول 1790) «الأرشيف الوطني»، وتحددت مهمته بوضع الوثائق الخاصة بالذاكرة الوطنية في متناول الجمهور العريض. وتابعت انكلترا الخطوة الفرنسية عام 1838 فأنشأت «مكتب السجلات العام» (public Record office) في لندن. وفتح البابا ليون الثالث عشر عام 1881 أرشيف الفاتيكان أمام الجمهور الذي كان قد تأسس في العام 1611. وتكاثرت المتاحف الوطنية والعامة في كل أنحاء أوروبا، كجزء من الذاكرة وعرفت المكتبات ازدهاراً وتطوراً مشابهين. ومن المظاهر الهامة المُعبِّرة عن الذاكرة الجمعية نقف أمام ظاهرتين تكرستا في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين: الأولى، غداة الحرب العالمية الأولى هي إقامة نصب الموتى، حيث ستعرف الاحتفالات التأبينية رواجاً كبيراً، فأقيم في بلدان عديدة نصب للجندي المجهول بهدف انشاء لحمة للأُمة من خلال الذاكرة المشتركة. الثانية، هي اختراع التصوير الذي أحدث نقلاباً في الذاكرة، فضاعفها وجعلها سهلة الشيوع، إذ قدم لها تحديداً أكثر دقة، وسمح التصوير بحفظ ذاكرة الزمن.

VI ـ الإنقلاب المعاصر في الذاكرة

أشار لوروا ـ غوران إلى المراحل التي قطعتها الذاكرة الجمعية: النقل الشفوي، والنقل الكتابي من خلال الألواح والمصنفات، واستخدام البطاقات البسيطة ومن ثم الوسائل الميكانيكية، وتالياً الوسائل الإلكترونية. لكن الإنقلاب الذي جرى للذاكرة ابان القرن العشرين، حصل بعد العام 1950، وشكل ثورة فعلية لم تكن الذاكرة الإلكترونية فيه إلا عنصراً واحداً، عظيماً دون أدنى شك.

يندرج ظهور الآلات الحاسبة الضخمة خلال الحرب العالمية الثانية في اطار تسريع

واسع للتاريخ. وخصوصاً التاريخ التقني والعلمي، بدءاً من العام 1960، ويمكن ادراجه أيضاً في مجرى التاريخ المديد للذاكرة الأوتوماتيكية. وبوجود التطور التقني وحضور الحاسوب، أضحت الذاكرة في المقام الأخير، إحدى ثلاث عمليات أساسية تتكون من: كتابة (écriture)، وذاكرة (mémoire)، وقراءة (Lecture). وهذه الذاكرة، ممكن أن تكون في بعض الحالات غير محدودة، وهنا تدخل في التمييز بين الذاكرة البشرية والذاكرة الإلكترونية حيث تبرز هشاشة الأولى وضعفها، وقوة الأخيرة وقدرتها الهائلة على استرجاع المعلومات. ويظهر أن صنع أدمغة صناعية ما يزال في خطواته الأولى. ومهما كان الأمر، فإن الإنسان هو الذي يتحكم بسائر هذه العمليات. فالذاكرة الإلكترونية ليست سوى مساعد، وخادم للذاكرة وللعقل الإنساني. لكن يمكن إبراز أمرين أثنين قاد إليهما ظهور الذاكرة الإلكترونية: الأول هو استخدام الحاسوب في مجال العلوم الإجتماعية، وتحديداً حين تكون الذاكرة هي المادة والموضوع: أي التاريخ. والتاريخ عاش ثورة توثيقية حقيقية بظهور نوع جديد من الذاكرة هو بنك المعلومات. الثاني هو توسيع استخدام مفهوم الذاكرة قياساً على الذاكرة الإلكترونية، على أنواع أخرى من الذاكرة مثال أبحاث العالم فرنسوا جاكوب (F.Jacob) الحائز على جائزة نوبل في كتابه «منعطف الحي: تاريخ الوراثة» حيث ينصب عمله على الذاكرة البيولوجية.

بالعودة إلى الذاكرة الاجتماعية، فإن الإنقلاب الذي عرفته في النصف الثاني من القرن العشرين تم التحضير له من خلال التوسع في مقاربة الذاكرة في حقلي الفلسفة والأدب. فالفيلسوف الفرنسي برغسون (H.Bergson) نشر في العام 1896 مؤلفه الشهير «المادة والذاكرة»، حيث وجد أن مقولة الصورة (Image) تلعب دوراً محورياً، على مفترق الذاكرة والإدراك. ومن خلال تحليل طويل لهنات الذاكرة: نسيان اللغة أو فقدان النطق (الحبسة)، اكتشف برغسون طي ذاكرة سطحية، مجهولة، تشابه العادة، ذاكرة عميقة شخصية، «صافية» (Pure)، لا يمكن تحليلها من خلال عبارات «الأشياء» ولكن من خلال مفهوم التطور. هذه النظرية التي عثرت على روابط الذاكرة بالفكر (esprit) كان لها الأثر الكبير على الأدب. فالسوريالية التي اعتمدت علم الحلم، انقادت إلى التساؤل حول الذاكرة، ولعب فرويد، دور الملهم، خصوصاً في كتابه «تفسير الأحلام» (1899) إذ أكد أن «سلوك الذاكرة خلال الحلم ذو أهمية كبرى لكل نظرية عن الذاكرة»، واسهام كل من

برغسون وفرويد كان بارزاً على مستوى الذاكرة الفردية.

هذا، وتعرضت الذاكرة الجمعية لتحولات عديدة عندما تأسست العلوم الاجتماعية ولعبت دوراً هاماً في الحقول العلمية المتداخلة بين بعضها. فالسوسيولوجيا مثلت عاملاً محرضاً لاستكشاف هذا المفهوم الجديد. فعام 1950، نشر موريس هولباخ (M.Halbawachs) كتاب «الذاكرة الجمعية». فقدمت البسيكولوجيا الاجتماعية، كما الذاكرة التي باتت وثيقة الصلة بالسلوك وبالذهنيات، الموضوع الجديد للتاريخ الجديد، قدمت مساهمتها في هذا المجال. والانتربولوجيا، بقدر ما تقدم لها عبارة «ذاكرة» مفهوماً يتلاءم مع حقائق المجتمعات «الوحشية» التي تدرسها كما عبارة «التاريخ»، استقبلت هذه المقولة واستكشفتها جنباً إلى جنب مع التاريخ، وتحديداً داخل الأنتربولوجيا التاريخية التي هي إحدى علامات التطور الراهنة المهمة في العلوم التاريخية.

بحثٌ، وانقاذٌ، وتمجيدٌ للذاكرة الجمعية، لا من خلال الأحداث المهمة فحسب، ولكن في الزمن الطويل الممتد. بحثٌ عن الذاكرة في النصوص، وفي الكلام والصور والأفعال والطقوس والأعياد. إنه الإهتداء والإعتناق للنظرة التاريخية، اعتناق شارك فيه الجمهور العريض الذي تملكه هاجس الخوف من خسارة الذاكرة، ومن النسيان الجمعي، والذي عبر عنه بشكل سلبي «تجار الذاكرة»: الذاكرة التي أصبحت أحد أشياء مجتمع الاستهلاك والتي تبيع جيداً. عرَّف بيار نور (P.Nora) الذاكرة الجمعية بأنها «ما يبقى من الماضي في مُعاش الجماعات، أو ما تصنعهُ هذه الجماعات بالماضي»، وهذا التعريف يمكن أن يُعارض للوهلة الأولى عبارة تلو العبارة ما يُسمى الذاكرة التاريخية.

حتى أيامنا هذه، كان الخلط عملياً هو السائد بين «التاريخ والذاكرة». فيظهر التاريخ وكأنه حقق تطوره الخاص بناء على نموذج «اعادة التذكر (remémoration) وعلى استعادة الماضي (anamnèse) وعلى تعبئة الذاكرة (mèmorisation). ويُعطي المؤرخون صيغة «الأساطير الجمعية الكبيرة» و «إننا ننتقل من التاريخ إلى الذاكرة الجمعية».

لكن تطور العالم المعاصر يقع تحت ضغط التاريخ المباشر، وهو في الجزء الكبير منه يُصنع فورياً بواسطة وسائل الاعلام، وينحو نحو الإنتاج المتعاظم للذاكرة الجمعية. وبات التاريخ يُكتب أكثر من أي وقت مضى تحت ضغط هذه الذاكرة الجمعية. فالتاريخ

المُسمى «جديد» والذي يجهد لتأسيس تاريخ علمي انطلاقاً من الذاكرة الجمعية، يمكن أن يتم تفسيره كمرادف «لثورة الذاكرة» مستكملاً تمحور الذاكرة حول عدد من الموضوعات الأساسية. تاريخ يُصنع انطلاقاً من دراسة «الأمكنة»، ومن الذاكرة الجمعية: «أمكنة طوبوغرافية، مثال: الأرشيف، المكتبات والمتاحف. أمكنة تمتلىء بالنُصب، مثال: المقابر والأبنية الهندسية. أمكنة رمزية، مثال: ذكرى الاحتفالات، الحج، الأعياد السنوية أو الشعارات. أمكنة وظيفية، مثال: الكتب المدرسية، السير الذاتية أو الجمعيات».

وهذا، يجب ألاّ ينسينا الصانعين والمهيمنين على الذاكرة الجمعية: «دول، أوساط اجتماعية، وسياسية، جماعات الخبرة التاريخية، أو الأجيال التي وجدت نفسها تؤسس أرشيفها الخاص تبعاً لاستخدامها المختلف للذاكرة». وبالتأكيد، أسست هذه الذاكرة الجمعية جانباً من معرفتها بواسطة أدوات تقليدية ولكنها مُدرَكة، ومستخدمة بشكل مختلف كُلياً. تجلى ذلك في فروع جديدة لدراسة التاريخ، كما حصل في الولايات المتحدة، حيث تم انشاء «التاريخ الشفوي» بين الأعوام 1952و 1959، في جامعة كولومبيا وبركلي ولوس انجلوس، وانتقلت العدوى إلى كندا، الكيبيك، وانكلترا وفرنسا، وظهر الاهتمام بتاريخ العمل والعمال من خلال الوعي بأهمية الماضي الصناعي، الحضري والعُمالي من جانب عدد كبير من السُكان.

ذاكرة جمعية عمالية تضافر في البحث عنها المؤرخون وعلماء الاجتماع. وانصرف المؤرخون وعلماء الأناسة نحو حقول أخرى للذاكرة الجمعية، في افريقيا وأوروبا مستخدمين طرائق جديدة في «الأَحياءَ» مثل «تواريخ الحياة» (histoire de vie). وفي حقل التاريخ وتحت تأثير المفاهيم الجديدة للزمن التاريخي وتطور نوع جديد من دراسة التاريخ، تأسس «تاريخ التاريخ»، وهو غالباً ما يُنظر إليه على أنه تلاعب الذاكرة الجمعية بظاهرة تاريخية لم يكن قد درسها سوى التاريخ التقليدي.

VII ـ الرهان ـ الذاكرة

أضحت الذاكرة في النصف الثاني من القرن العشرين جزءاً من الرهانات الكبيرة للمجتمعات المتطورة والسائرة في طريق التطور، للطبقات المسيطرة والمسيطر عليها، والمناضلة إما من أجل السلطة أو من أجل الحياة، المكافحة للبقاء أو للتقدم. فالذاكرة هي

عنصر أساسي لما يُطلق عليه الهوية الفردية أو الجمعية، وحيث يظهر البحث عنها كإحدى الفعاليات الرئيسة للأفراد والمجتمعات اليوم. والذاكرة الجمعية لم تعد فتحاً فحسب، بل هي أداة وموضوع للقوة. فالمجتمعات التي ما برحت ثقافاتها شفوية وتعمل لتأسيسها كتابة، هي التي تسمح لنا بإدراك شدة السعي لهيمنة الذكرى والتقليد.

لقد بيّن بول فين (p.veyne) في أبحاثه حول اليونان والرومان، كيف أنفق الأغنياء جزءاً كبيراً من ثرواتهم ليتركوا ذكرى عنهم وعن دورهم. لذلك تبدو من المهمات الملحة أمام المختصين بالذاكرة من مؤرخين، وانتروبولوجيين وصحافيين وعلماء اجتماع، السعي من أجل دمقرطة الذاكرة الاجتماعية بمواجهة المعارف الخاصة التي تحتكرها مجموعات محددة تدافع عن مصالح خاصة.

فالذاكرة بما هي منهل للتاريخ ومصدر تغذية في الآن عينه، لا تبحث في انقاذ الماضي إلا لكي تنجح في خدمة الحاضر والمستقبل. لذا، من الضروري العمل على أن تُسهم الذاكرة الجمعية في تحرير الناس، لا في استعبادهم.

* * *